تفسير ابن كثير

يخبر تعالى عن أكثر الناس أنهم لو أمروا بما هم مرتكبونه من المناهي لما فعلوه لأن طباعهم الرديئة مجبولة على مخالفة الأمر وهذا من علمه تبارك وتعالى بما لم يكن أو كان فكيف كان يكون ولهذا قال تعالى : { ولو أنا كتبنا عليهم أن اقتلوا أنفسكم } الاية قال ابن جرير : حدثني المثنى حدثني إسحاق حدثنا أبو زهير عن إسماعيل عن أبي إسحاق السبيعي قال : لما نزلت { ولو أنا كتبنا عليهم أن اقتلوا أنفسكم } الاية قال رجل : لو أمرنا لفعلنا والحمد الذي عافانا فبلغ ذلك النبي صلى ا عليه وسلّم فقال : [إن من أمتي لرجالا الإيمان أثبت في قلوبهم من الجبال الرواسي] ورواه ابن أبي حاتم : حدثنا جعفر بن منير حدثنا روح حدثنا هشام عن الحسن بإسناده عن الأعمش قال : لما نزلت { ولو أنا كتبنا عليهم أن اقتلوا أنفسكم } الاية قال أناس من أصحاب النبي صلى ا عليه وسلّم : لو فعل ربنا لفعلنا فبلغ النبي صلى ا عليه وسلّم فقال : [للإيمان أثبت في قلوب أهله من الجبال الرواسي] وقال السدي : افتخر ثابت بن قيس بن شماس ورجل من اليهود فقال اليهودي : وا لقد كتب ا علينا القتل فقتلنا أنفسنا فقال ثابت : وا لو كتب علينا { أن اقتلوا أنفسكم } لفعلنا فأنزل ا هذه الاية ورواه ابن أبي حاتم حدثنا أبي حدثنا محمود بن غيلان حدثنا بشر بن السري حدثنا مصعب بن ثابت عن عمه عامر بن عبد ا بن الزبير قال : لما نزلت { ولو أنا كتبنا عليهم أن اقتلوا أنفسكم أو اخرجوا من دياركم ما فعلوه إلا قليل منهم } قال رسول ا صلى ا عليه وسلّم : [لو نزلت لكان ابن أم عبد منهم] وحدثنا أبي حدثنا أبو اليمان حدثنا إسماعيل بن عياش عن صفوان بن عمرو عن شريح بن عبيد قال : لما تلا رسول ا صلى ا عليه وسلّم هذه الاية { ولو أنا كتبنا عليهم أن اقتلوا أنفسكم } الاية أشار رسول ا صلى ا عليه وسلّم هذه بيده إلى عبد ا بن رواحة فقال : [لو أن ا كتب ذلك لكان هذا من أولئك القليل] يعني ابن رواحة ولهذا قال تعالى : { ولو أنهم فعلوا ما يوعظون به } أي ولو أنهم فعلوا ما يؤمرون به وتركوا ما ينهون عنه { لكان خيرا لهم } أي من مخالفة الأمر وارتكاب النهي { وأشد تثبيتا } قال السدي : أي وأشد تصديقا { وإذا لآتيناهم من لدنا } أي من عندنا { أجرا عظيما } يعني الجنة { ولهديناهم صراطا مستقيما } أي في الدنيا والاخرة ثم قال تعالى : { ومن يطع ا والرسول فأولئك مع الذين أنعم ا عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا } أي من عمل بما أمره ا به وترك ما نهاه ا عنه ورسوله فإن ا D يسكنه دار كرامته ويجعله مرافقا للأنبياء ثم لمن بعدهم في الرتبة وهم الصديقون ثم الشهداء والصالحون الذين صلحت سرائرهم وعلانيتهم

ثم أثنى عليهم تعالى فقال : { وحسن أولئك رفيقا } وقال البخاري : حدثنا محمد بن عبد ا بن حوشب حدثنا إبراهيم بن سعد عن أبيه عن عروة عن عائشة قالت : سمعت رسول ا صلى ا عليه وسلّم يقول : [ما من نبي يمرض إلا خير بين الدنيا والاخرة] وكان في شكواه التي قبض فيها أخذته بحة شديدة فسمعته يقول : [مع الذين أنعم ا عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين] فعلمت أنه خير وكذا رواه مسلم من حديث شعبة عن سعد بن إبراهيم به وهذا معنى قوله صلى ا عليه وسلّم في الحديث الاخر [اللهم الرفيق الأعلى] ثلاثا ثم قضى عليه أفضل الصلاة والتسليم .

(ذكر سبب نزول هذه الاية الكريمة) .

قال ابن جرير : حدثنا ابن حميد حدثنا يعقوب القمي عن جعفر بن أبي المغيرة عن سعيد بن جبير قال : جاء رجل من الأنصار إلى رسول ا صلى ا عليه وسلّم وهو محزون فقال له النبي صلى ا عليه وسلّم : [يا فلان ما لي أراك محزونا ؟] فقال : يا نبي ا شيء فكرت فيه فقال : ما هو ؟ قال : نحن نغدو عليك ونروح ننظر إلى وجهك ونجالسك وغدا ترفع مع النبيين فلا نصل إليك فلم يرد النبي صلى ا عليه وسلّم شيئا فأتاه جبريل بهذه الاية { ومن يطع ا والرسول فأولئك مع الذين أنعم ا عليهم من النبيين } الاية فبعث النبي صلى ا عليه وسلّم فبشره وقد روي هذا الأثر مرسلا عن مسروق وعن عكرمة وعامر الشعبي وقتادة وعن الربيع بن أنس وهو من أحسنها سندا قال ابن جرير : حدثنا المثنى حدثنا ابن أبي جعفر عن أبيه عن الربيع قوله : { ومن يطع ا والرسول } الاية وقال : إن أصحاب النبي صلى ا عليه وسلّم قالوا : قد علمنا أن النبي صلى ا عليه وسلّم له فضل على من آمن به في درجات الجنة ممن اتبعه وصدقه وكيف لهم إذا اجتمعوا في الجنة أن يرى بعضهم بعضا فأنزل ا في ذلك يعني هذه الاية فقال : يعني رسول ا [إن الأعلين ينحدرون إلى من هو أسفل منهم فيجتمعون في رياض فيذكرون ما أنعم ا عليهم ويثنون عليه وينزل لهم أهل الدرجات فيسعون عليهم بما يشتهون وما يدعون به فهم في روضة يحبرون ويتنعمون فيه] وقد روي مرفوعا من وجه آخر فقال أبو بكر بن مردويه : حدثنا عبد الرحيم بن محمد بن مسلم حدثنا إسماعيل بن أحمد بن أسيد حدثنا عبد ا بن عمران حدثنا فضيل بن عياض عن منصور عن إبراهيم عن الأسود عن عائشة قالت : جاء رجل إلى النبي A فقال : يا رسول ا إنك لأحب إلي من نفسي وأحب إلي من أهلي وأحب إلي من ولدي وإني لأكون في البيت فأذكرك فما أصبر حتى آتيك فأنظر إليك وإذا ذكرت موتي وموتك عرفت أنك إذا دخلت الجنة رفعت مع النبيين وإن دخلت الجنة خشيت أن لا أراك فلم يرد عليه النبي A حتى نزلت عليه { ومن يطع ا والرسول فأولئك مع الذين أنعم ا عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا } وهكذا رواه الحافظ أبو عبد ا المقدسي في كتابه في صفة الجنة من طريق الطبراني عن أحمد بن عمرو بن مسلم

الخلال عن عبد ا بن عمران العابدي به ثم قال : لا أرى بإسناده بأسا وا أعلم وقال ابن مردويه أيضا : حدثنا سليمان بن أحمد حدثنا العباس بن الفضل الأسفاطي حدثنا أبو بكر بن ثابت ابن عباس المصري حدثنا خالد بن عبد ا عن عطاء بن السائب عن عامر الشعبي عن ابن عباس : أن رجلا أتى النبي A فقال : يا رسول ا إني لأحبك حتى إني لأذكرك في المنزل فيشق ذلك علي وأحب أن أكون معك في الدرجة فلم يرد عليه النبي A شيئا فأنزل ا D هذه الاية وقد رواه ابن جرير عن ابن حميد عن جرير عن عطاء عن الشعبي مرسلا وثبت في صحيح مسلم من حديث هقل بن زياد عن الأوزاعي عن يحيى بن أبي كثير عن أبي سلمة بن عبد الرحمن عن ربيعة بن كعب الأسلمي أنه قال : كنت أبيت عند النبي A فأتيته بوضوئه وحاجته فقال لي [سل] فقلت : يا رسول ا أسألك مرافقتك في الجنة فقال : [أو غير ذلك ؟] قلت : هو ذاك قال : [فأعني على نفسك بكثرة السجود] .

وقال الإمام أحمد : حدثنا يحيى بن إسحاق أخبرنا ابن لهيعة عن عبيد ا بن أبي جعفر عن عيسى بن طلحة عن عمرو بن مرة الجهني قال : جاء رجل إلى النبي A فقال : يا رسول ا شهدت أن لا إله إلا ا وأنك رسول ا وصليت الخمس وأديت زكاة مالي وصمت شهر رمضان فقال رسول ا A : [من مات على ذلك كان مع النبيين والصديقين والشهداء يوم القيامة وهكذا ـ ونصب أصبعيه ـ ما لم يعق والديه] تفرد به أحمد قال الإمام أحمد أيضا : حدثنا أبو سعيد مولى أبي هاشم حدثنا ابن لهيعة عن زبان بن فائد عن سهل بن معاذ بن أنس عن أبيه أن رسول ا A قال : [من قرأ ألف آية في سبيل ا كتب يوم القيامة مع النبيين والصديقين والشهداء الصالحين وحسن أولئك رفيقا إن شاء ا] وروى الترمذي من طريق سفيان الثوري عن أبي حمزة عن الحسن البصري عن أبي سعيد قال : قال رسول ا A : [التاجر الصدوق الأمين مع النبيين والصديقين والشهداء] ثم قال : هذا حديث حسن لا نعرفه إلا من هذا الوجه وأبو حمزة اسمه عبد ا بن جابر شيخ بصري وأعظم من هذا كله بشارة ما ثبت في الصحيح والمسانيد وغيرهما من طرق متواترة عن جماعة من الصحابة أن رسول ا A سئل عن الرجل يحب القوم ولما يلحق بهم فقال : [المرء مع من أحب] قال أنس : فما فرح المسلمون فرحهم بهذا الحديث وفي رواية عن أنس أنه قال : إني لأحب رسول ا A وأحب أبا بكر وعمر Bهما وأرجو أن ا يبعثني معهم وإن لم أعمل كعملهم قال الإمام مالك بن أنس عن صفوان بن سليم عن عطاء بن يسار عن أبي سعيد الخدري قال : قال رسول ا A : [إن أهل الجنة ليتراءون أهل الغرف من فوقهم كما تراءون الكوكب الدري الغابر في الأفق المشرق أوالمغرب لتفاضل ما بينهم] قالوا : يا رسول ا تلك منازل الأنبياء لا يبلغها غيرهم قال [بلى والذي نفسي بيده رجال آمنوا با وصدقوا المرسلين] أخرجاه في الصحيحين من حديث مالك واللفظ لمسلم ورواه الإمام أحمد حدثنا فزارة أخبرني فليح عن هلال يعني ابن علي عن عطاء عن أبي هريرة أن رسول ا A قال :

[إن أهل الجنة ليتراءون في الجنة كما تراءون ـ أو ترون ـ الكوكب الدري الغابر في الأفق الطالع في تفاضل الدرجات] قالوا : يا رسول ا أولئك النبيون ؟ قال : [بلى والذي نفسي بيده رجال آمنوا با وصدقوا المرسلين] قال الحافظ الضياء المقدسي : هذا الحديث على شرط البخاري وا أعلم .

وقال الحافظ أبو القاسم الطبراني في معجمه الكبير : حدثنا علي بن عبد العزيز حدثنا محمد بن عمار الموصلي حدثنا عفيف بن سالم عن أيوب عن عتبة عن عطاء عن ابن عمر قال : أتى رجل من الحبشة إلى رسول ا A يسأله فقال له رسول ا A : [سل واستفهم] فقال : يا رسول ا فضلتم علينا بالصور والألوان والنبوة ثم قال : أفرأيت إن آمنت بما آمنت به وعملت بما عملت به إني لكائن معك في الجنة قال رسول ا A : [نعم والذي نفسي بيده إنه ليضيء بياض الأسود في الجنة من مسيرة ألف عام] ثم قال رسول ا A : [من قال : لا إله إلا ا كان له بها عهد عند ا ومن قال : سبحان ا وبحمده كتب له بها مائة ألف حسنة وأربعة وعشرون ألف حسنة] فقال رجل : كيف نهلك بعد هذا يا رسول ا ؟ فقال رسول ا A [إن الرجل ليأتي يوم القيامة بالعمل لو وضع على جبل لأثقله فتقوم النعمة من نعم ا فتكاد أن تستنفد ذلك كله إلا أن يتغمده ا برحمته] ونزلت هذه الايات { هل أتى على الإنسان حين من الدهر لم يكن شيئا مذكورا * إنا خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج نبتليه فجعلناه سميعا بصيرا * إنا هديناه السبيل إما شاكرا وإما كفورا } إلى قوله { وإذا رأيت ثم رأيت نعيما وملكا كبيرا } فقال الحبشي : وإن عيني لتريان ما ترى عيناك في الجنة ؟ فقال رسول ا A : [نعم] فاستبكى حتى فاضت نفسه قال ابن عمر : فلقد رأيت رسول ا A يدليه في حفرته بيديه فيه غرابة ونكارة وسنده ضعيف ولهذا قال تعالى : { ذلك الفضل من ا } أي من عند ا برحمته وهو الذي أهلهم لذلك لا بأعمالهم { وكفى با عليما } أي هو عليم بمن يستحق الهداية والتوفيق